العلاقات الرومانية القرطاجية في ظل التحالف النوميدي ودوره في الحسم العسكري (206 - 202 ق م)

د. عبد السلام حسين الشويشين – قسم السياحة والآثار- كلية الآداب غريان– جامعة غريان
د. وليد عامر عون – قسم التاريخ- كلية الآداب الأصابعة- جامعة غريان

المقدمة:

كان لزامًا أن تكون هناك علاقات بين روما وقرطاج، ومهما يكن من اختلاف المؤرخين حول بداية العلاقات الرومانية القرطاجية، فإن المعاهدات التي وقعت بين الجانبين حددت نفوذ القوتين في المنطقة، وجل المعاهدات الموقعة بين الطرفين كانت تهدف لتقنين نشاط روما التجاري في غرب المتوسط إلا أن هذا الأمر ما كان ليستمر بعد سيطرة روما على شبه الجزيرة الإيطالية، وما نتج عنه من تحقيق الزعامة الرومانية وظهور روما دولة قوية وحديثة على المسرح السياسي والعسكري في المنطقة، وكان من المتوقع تغيُّر العلاقات السلمية بين الطرفين؛ وذلك لتنافس كل منهما حول السيادة السياسية والعسكرية والاقتصادية في غرب البحر الأبيض المتوسط، وقد أفضى هذا التنافس إلى سلسلة من الحروب التي نشبت بين روما وقرطاجة، والتي عرفت باسم الحروب البونية، **والسؤال المطروح هنا:** هل كانت العلاقات العدائية مقتصرة على روما وقرطاج؟ أم أنه كانت هناك قوة ثالثة لا يستهان بها وكان لها دور كبير في مجريات الأحداث؟

هذه القوة تكمن في الممالك النوميدية، حيث شهدت المنطقة الإفريقية نماذج مختلفة من أوجه السياسة القرطاجية والرومانية، فالتحالف على سبيل المثال مع الممالك النوميدية كان هدفًا منشودًا يسعى إليه الطرفان؛ لأنه كان يُشَكِّل بداية الخطوات الأولى نحو تحقيق النصر والمكاسب، حيث ساهمت العلاقات الرومانية النوميدية في استغلال مبررات التحالف مع الملوك النوميدين وبهذا شكَّل التحالف أقوى دعم للسياسة الرومانية التي تهدف للقضاء على القرطاجيين بالدرجة الأولى، ومن ثَمَّ تهيئة الجو الإفريقي سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا بتوسيع النفوذ الروماني في المنطقة بأقل تكاليف.

دوافع الاختيار:

يكمن اختياري لهذا الموضـوع؛ لوجود الكثير من الدراسـات السـابقة التي تناولت الحروب البونية بشكل كبير، وَجُلُّها ركز على أطراف الصراع روما وقرطاج، مع إغفال طرف مهم في هذا الصراع وحتى وإنْ تم التطرق إليه كان باختصار شديد، وهذا الطرف هو المملكة النوميدية، حيث تم صـقل الموضـوع على هيئة دراسـة في العلاقات السياسية والعسكرية لكل من روما وقرطاج ونوميديا.

خطة البحث:

جاء هذا البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، تناول **المبحث الأول**: علاقة نوميديا الغربية والشـرقية بقرطاج وروما ودورهما في الحسـم العسـكري. **والمبحث الثاني:** الهجوم الكبير والمعاكس لاسـكيبو على الشـواطئ القرطاجية 204ق.م. **أما المبحث الثالث تناول**: المفاوضـات الرومانية القرطاجية وعودة حنبعل في خريف 203ق.م إلى قرطاج.

المبحث الأول ـ علاقة نوميديا الغربية والشـرقية بقرطاج وروما ودورهما في الحسم العسكري:

أولاً- علاقة نوميديا الغربية بقرطاج وروما ودورها في الحسم العسكري:

فشـلت الدبلوماسـية القرطاجية في محالفة المملكتين معًا أي: مملكة نوميديا الغربية الماسيسلي، ومملكة نوميديا الشرقية ماسيلي وإقامة سياسة توافقية بين العرشين تكون أسـاسًـا للوئام والمودة بين الأنظمة السـياسـية في المنطقة الغربية ويبدو جليًّا أن الصـراع السـياسـي بين المملكتين ظهر بوضـوح منذ هزيمة قرطاج في الحرب البونية الأولى ونهجها سياسة التحول إلى المغرب.[1]

ومحاولتها الاسـتفادة من ملوكها في تجنيد الجند لدعمها في حروبها مع روما، ثم إن هؤلاء الملوك إذا عرفت كيف تجذبهم إليها يسـتطيعون القيام بعمليات الحراسـة حول مسـتعمراتها وحول مقاطعتها الإفريقية فهي تدرك جيدًا أن هؤلاء الملوك ليسـوا أتباعًا متواضعين بقدر ما هم حلفاء لابد من مراعاتهم.[2]

ولعل ما قام به الملك جايا والد مسـينيسـا سـنة 220 ق.م باجتياح مسـاحات واسـعة من الأراضـي الخصـبة في منطقة باجا Vaga وما جاورها في حوض مجردة الأعلى خير دليل على ذلك[3]، ويفسـر البعض أن مـا قـام بـه كـان ردة فعل لفرض قرطـاجـة على مملكتـه دفع الجزيـة لاتهـامهم إيـاه بـدعم ثورة الجنود المرتزقـة، وأنهم السبب في إشعالها مما آثار الملك جايا.[4]

ولم ترد قرطاج على هذا الفعل؛ لأنها تدرك تمامًا خطورة الموقف وخاصة أنها مقبلة على خوض حرب كبرى ضد روما ولم يكن في صالحها اتساع جبهة القتال لتشمل ضفتي الحوض الغربي للبحر المتوسط الشمالية والجنوبية.[5]

ولذلك عملت جاهدة على تحسين علاقتها مع الملك جايا وكسبه إلى صفها ونجحت في ذلك المسعى إلى حد كبير، حيث كان يَمدُّ قرطاجة بالفرسان النوميدين الذين اشتركوا في أغلب حروبها، وفي الحرب البونية الثانية قام بإرسال قوة من النوميدين بزعامة ابنه مسينيسا إلى أسبانيا، حيث مكث بها من سنة 212ق.م إلى 206ق.م.[6]

إلا أن هذا التقارب لم يرق لسيفاقس والذي كانت له علاقات صداقة متينة مع القرطاجيين واعتبره انحيازًا لقرطاج اتجاه خصمه الملك جايا.[7]

فأعلن الحرب ضد القرطاجيين الأمر الذي فرض على عزربعل أن يوجه قسمًا من جيشه المرابط في إسبانيا لإخضاع سيفاقس ومن هنا يتضح بما لا يَدَعُ مجالاً للشك إخفاق السياسة القرطاجية اتجاه جيرانها النوميدين، انتهزت روما بطبيعة الحال العلاقة المتوترة بين قرطاج وسيفاقس ورأت في ذلك فرصة ثمينة لا تقدر بثمن وعملت على استغلال تلك الفرصة عندما كَلَّفتْ قائدها اسكيبو بالاتصال السريع بسيفاقس ويعرض عليه التحالف معه ضد الملك جايا وقرطاج والقيام بعمل مشترك هدفه تحطيم كل من قرطاج والملك جايا.[8]

إلا أن الدبلوماسية القرطاجية نجحت في إنهاء الخلاف المشار إليه بعد أن أدركت خطأ سياستها تجاه الملك سيفاقس الذي أفلح الرومان بإقناعه بفتح جبهة قتال في أرض قرطاج؛ ولذلك عدَّلت الأخيرة خطتها السياسية تلك، وتراجعت عن دعم الملك جايا زعيم نوميديا الغربية وفي محاولة منها للاقتراب أكثر من سيفاقس زوَّجته بالأميرة القرطاجية صفونيب Sophonisbe بنت عزربعل جيسكون.[9]

والتي خطبت من قبل إلى الأمير مسينيسا عندما كان ضابطًا في الجيش القرطاجي بإسبانيا[10]، وأجمع المؤرخون المحدثون على اعتبار هذا الزواج جاء من منطلق واقع سياسي أكثر منه عاطفي[11]، وأمام هذه التغيرات في المواقف حاول سيفاقس أن يحسن إلى قرطاج، وذلك بإعادة الأملاك التي سبق أن اقتطعها جايا أثناء حروبه مع قرطاج سنة 220ق.م لها، وذلك كبادرة حسن نية؛ وإدراكًا منه لخطورة الموقف حاول التوسط بين قرطاج وروما في النزاع القائم بينهما[12]، وتجدر الإشارة

إلى أن شخصية هذا الملك تتصف بالرزانة وحصافة النظر للأشياء، ومن ثم تغليب العقل على العاطفة في كثير من الأحيان.[13]

ويتضح ذلك جليًّا من خلال وساطته والتي كانت تتطلب منه أن يحافظ على التوازن بين الدولتين اللتين تتسابقان على كسب تحالفه، وذلك نتيجة طبيعية لأهمية مملكته جغرافيًّا، حيث إنها كانت تتوسط المسافة بين أسبانيا والمنطقة التي يتم اختيارها من قبل الرومان لإنزال جنودهم[14]، إلى كسب صداقته من جديد وانحيازه إلى صفهم ضد قرطاج وفي هذا الإطار أرسل أسكيبو قائده لاليوس Laelius ليتفاوض مع سيفاقس.[15]

واشترط الأخير على المبعوث الروماني أن يلتقي بالقائد أسكيبو في مدينة سيجا عاصمته فلم يتردد بقبول الدعوى مادام الأمر يَصُبُّ في مصلحة روما، فلم يُلْقِ بالاً بمخاطر عبور البحر والإبحار إلى سيجا مقر سيفاقس وكان ذلك في عام 206ق.م.[16]

وفي مدينة سيجا التي لا تبعد عن ساحل البحر المتوسط إلا بمقدور 4 كيلومتر التقى القائد الروماني أسكيبو بالقائد القرطاجي صدر بعل بن جيسكون والذي جاء في نفس الوقت وهكذا التقى القائدان القرطاجي والروماني عند الملك النوميدي سيفاقس وكان كل من القائدين يحمل مشروعًا للتحالف وطلب المساعدة من الملك النوميدي الذي عَظُمَ عنده الأمر فهو يرى قادة أكبر قوتين في عصره يقدمون عليه في نفس اليوم طالبين منه الصداقة والتحالف وما كان منه إلا قدم حسن الضيافة لكليهما.[17]

وعمل جاهدًا بعد أن جمع بينهما على التفاوض لإنهاء العداوة التقليدية والحرب الدائرة بين الطرفين، غير أن أسكيبو رفض هذا الطلب معللاً ذلك بأنه لا يشعر شخصيًّا اتجاه صدر بعل بأي كراهية تفرض المصالحة بينهما زد على ذلك أنه لا يستطيع البتَّ في قضية يعود الحل والعقد فيها لمجلس السناتو.[18]

وفي محاولة من الملك النوميدي للتقريب بين الطرفين دعاهما إلى مائدته ورجاهما أن يجلسا على نفس الفرش[19]، وما لفت نظر صدر بعل وسيفاقس على حد سواء هو ما تميز به أسكيبو من لباقة وكياسة وروعة في حديثه مما جعل صدر بعل يصرح لسيفاقس أن الرجل بدا له أكثر إبهارًا في هذا اللقاء الذي جمعهم وجهًا لوجه منه في مآثره الحربية وقال قولته المشهورة (على القرطاجيين ألا يبحثوا في كيفية ضياع إسبانيا بقدر ما كان عليهم أن يتساءلوا عن كيفية احتفاظهم بأفريقيا).[20]

أدرك سيفاقس تمام الإدراك قوة العدوين المتصارعين قرطاجة وروما وعلاقة ذلك بمملكته المحايدة حتى تلك الفترة من 206ق.م، ولذلك عمل جاهدًا على إنهاء ذلك النزاع عن طريق التفاوض والمصالحة.[21]

وبات من الواضح أن الملك سيفاقس حاول أن يستفيد من الأحداث الجارية إلا أن تردده بين القوتين المتحاربتين ومحاولته الحيلولة دون وقوع الصدام بينهما جعله يفشل في تحقيق أهدافه.[22]

وبالرغم مما تميز به القائد الروماني أسكيبو من لباقة وكياسة وروعة في حديثه تكسب العقول، إلا أنه فشل أمام منافسة صدر بعل في كسب الملك النوميدي في صفه، ويتضح ذلك من خلال تحالفٍ تم التوقيع عليه بين قرطاج والملك النوميدي، ونجحت الأولى في التأكيد على إقناعه وإزالة التردد الذي كان يلازمه، وبحسب العادة السائدة قديمًا وحديثًا وهي أن الروابط العامة تقوى بالروابط الخاصة، فإن هذا التحالف السياسي كان مدعومًا بالمصاهرة المتمثلة في زواج سيفاقس من صفونيب[23] بنت صدر بعل، كما تمت الإشارة، والتي كانت لها مواهب متعددة متمثلة في ثقافتها الواسعة وكانت موسيقية بارعة بالإضافة إلى ما تميزت به من جمال وعقل.[24]

وهو الجانب العاطفي الذي انصبَّ عليه اهتمام الكتاب فأولوه أهمية خاصة بل ذهبوا لاعتباره الورقة السحرية التي استخدمتها قرطاجة من أجل استعادة نفوذها السياسي في مملكة نوميديا الغربية.[25]

والملاحظ هنا تركيز المؤرخين الأجانب على زواج صفونيب من الملك سيفاقس حيث إنها أثرت في مجريات الأحداث بشكل كبير وذلك من خلال تأثيرها في زوجها سيفاقس، كما جعلوا هذا الزواج من العوامل الأساسية التي كانت تحرك مسينيسا للانتقام من سيفاقس بالإضافة إلى ما أسندوه للملكة البونية من أدوار خطيرة في توجيه الحرب ضد الرومان وإن ذلك من شأنه أن يجرد الملكين سيفاقس ومسينيسا من مسئوليتهما كممثلين لقبلتين كانتا في صراع مستمر.

وفي حقيقة الأمر لا تمثل قضية الزواج من الملكة البونية إلا الجانب العاطفي والذي سرعان ما تلاشى أمام الأهداف السامية التي عاش من أجلها الملكين والمتمثلة في الدفاع عن التاج والأرض.[26]

وقد أدى التقارب بين قرطاج وسيفاقس إلى توقيع اتفاقية تحالف التزم فيها الأخير بأن جيشه سيحارب إلى جانب القرطاجيين إذا ما تم نقل الرومان حربهم إلى شمال أفريقيا.[27]

وفي خطوة جريئة أرسل الملك سيفاقس سنة 204ق.م رسله للقائد الروماني أسكيبو في سيركوزه يخبرونه إذا ما تم نقل الحرب إلى شمال أفريقيا فإن الملك سيفاقس سيكون مضطرًا لأن يقاتل إلى جانب القرطاجيين.[28]

وخلاصة القول إن الملك النوميدي سيفاقس كان سدًّا قويًّا يعتمد عليه كل من له مشروعات في أفريقيا حيث هيَّأت له الظروف أن يكون الأكثر أموالاً في تلك الأرض.[29]

إذا كان هذا واقع علاقة نوميديا الغربية بالقوتين المتصارعتين فكيف كانت علاقة نوميديا الشرقية بهما، وخاصة أن تحالفًا كان يربط بين قرطاج ونوميديا الشرقية بزعامة جايا وإلى متى سوف يبقى هذا التحالف صامدًا أمام المتغيرات ومجريات الأحداث المتتالية؟

وهل استطاعت قرطاج سد الفجوة السياسية الناتجة عن فشل دبلوماسيتها في جمع الفرقاء النوميديين، أم أنها غفلت عن ثغرة ما سمحت للرومان للتدخل منها وتغيير موازين القوة بالمنطقة؟

ثانيًا- علاقة نوميديا الشرقية بقرطاج وروما ودورها في الحسم العسكري:

من الحقائق التاريخية التي أوردها المؤرخون أن جايا يعتبر أول ملك يحكم نوميديا الشرقية وتزامن حكمه مع ثورة المرتزقة 241ق.م- 237ق.م، وكان في أخر عهده حليفًا لقرطاج التي ساهم في دعمها في حروبها ضد سيفاقس 213 ق.م.[30] ظل الملك على وفائه لقرطاج وعندما دعت الحاجة زودها بالجيوش التي ذهبت إلى إسبانيا ونصب عليها ابنه ميسينسا 206ق.م، وقد أدى خدمات جليلة هو وفرسانه للجيوش القرطاجية.[31]

يتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن المملكتين النوميدتين وعلى رأسهما ملوكهما كانت كل منهما تمثل قوة ذات أهمية كبيرة وتبعًا لذلك فإن سعي العدوين المتصارعين قرطاج وروما كان حثيثًا؛ لكسب صداقة كليهما أو على الأقل إحداهما وبالتالي نجحت قرطاجة في كسب سيفاقس بعد أن شن ضدها حربًا انتهت 212ق.م بدعم من الرومان في الوقت الذي كان فيه جايا وابنه مسينيسا حلفاء لقرطاج.[32]

إلا أن الوضع لم يستمر على ما هو عليه فهناك العديد من التساؤلات عن الدوافع الكامنة خلف تغير سياسة مسينيسا بعد وفاة أبيه اتجاه قرطاج، وهل كان للانتصار الذي حققه أسكيبو في إسبانيا علاقة بذلك، وبات يدرك حقيقة اقتراب نهاية

قرطاج؟ أم أن قرطاج هي من تخلَّت عنه وتنكرت لخدماته الجليلة إثر عقدها التحالف مع سيفاقس؟

إنه بوفاة الملك جايا في مطلع سنة 206ق.م قامت أزمة على عرش نوميديا الشرقية[33]، حيث تولى بعده أخوه أوزلسيس Ozalces أكبر أعضاء الأسرة الحاكمة سِنًّا وذلك حسب التقليد المتبع وكان طاعنًا في السن، ولم يدم حكمه طويلاً.[34]

حيث عاجله الموت في سنة 207ق.م وترك ابنين هما: كابوسا Capussa الذي تولى الملك من بعده حسب القاعدة المعمول بها[35]، والآخر طفل صغير وهو لكومازيس Lacumazes ولم يكن للملك الجديد هيبة في النفوس؛ فثار عليه أحد الضباط الكبار الذي يدعى مازيتول Mazaetule وهو ينتمي لنفس الأسرة الحاكمة غير أنه ينحدر من الفرع الذي دائمًا يجاهر الفرع المالك بالعداوة وينازعه في السلطة، وما لبث كابوسا حتى مات في إحدى المعارك وأصبح مازيتول السيد في نوميديا الشرقية، إلا أنه لم يتلقب بلقب ملك وأعلن نفسه وصيًّا على الطفل لكوماز.[36]

ومن خلال هذا الطرح نستنتج أنه قد تم مخالفة القواعد التقليدية للحكم واعتبر مسينيسا والذي كان أكبر سِنًّا من لكوماز أن حقه الشرعي في تولي الملك قد تم التحايل عليه وأدرك جيدًا أن كل ذلك حدث بإيعاز من قرطاج وإلى ذلك الوقت لا يزال يقاتل ضمن صفوفها وما جعله متأكدًا تمامًا من نوايا قرطاج هو تزويج مازيتول من أرملة أوزلسيس عم مسينيسا وهي ابنة أخ القائد القرطاجي حنبعل.[37]

شعر مسينيسا بالخطر الذي بات يحدق به وأدرك تمامًا سياسة قرطاج والتي لن تتردد للحظة واحدة في التضحية به وبمصالحه رغم شرعيتها.[38]

والأشد من ذلك أنه تبين له أن لها يدًا مع حليفها سيفاقس في تحريك الأحداث ضد مصالحه السياسة الرامية لتوليه الحكم وبقائها في موقف المتفرج في ضياع حقه في وراثة العرش النوميدي، الأمر الذي اعتبره تدخلاً سافرًا في الشؤون النوميدية وعَدَّه نكرانًا واضحًا لخدماته الجليلة التي أسداها إليها بوقوفه معها منذ حوالي سنة 212ق.م إلى 206 ق.م في إسبانيا.[39]

كل ذلك جعل مسينيسا يعيد النظر في تحالفاته وسياسته، وأصبح يفكر مليًّا في محالفة الرومان الذين كانوا متعطشين لمن يقوم بدور المساعد لهم؛ لكي يتسنى لهم تنفيذ سياستهم الأفريقية بكل نجاح وأن لا تقود المرحلة الأخيرة من نقل المعركة إلى أفريقيا إلى مغامرات مفجعة على غرار ما حدث مع أجاتوكليس وريغولوس؛ لذلك كان

لِزامًا على روما أن يكون لها في أفريقيا حلفاء موثوقون يمكن أن يكونوا لها عَوْنًا لتحقيق مخططهم.[40]

وبذلك أوعزت روما إلى قائدها أسكيبو بالقيام بمجهود سياسي تجاه الأمير النوميدي الغاضب قصد استمالته وعقد تحالفًا معه يكون بمثابة الجسر الذي يتسنى للرومان من خلاله النزول في أرض الأعداء القرطاجيين.[41]

وبدأ أسكيبو بمغازلة الأمير النوميدي مسينيسا، ويتضح ذلك جليًّا عندما وقع ماسيڤا Massiva ابن أخ مسينيسا أسيرًا مع غيره من الجنود الأفريقيين فأطلق سكيبو سراحه بكل مظاهر التكريم.[42]

ومن هنا أصبح اللقاء بين الأمير النوميدي والقائد الروماني أمرًا مُحَتَّمًا لحاجة الطرفين الماسّة لهذا اللقاء، والذي سينتج تحالفا قويا سيكون له دور كبير في تغيير مجريات الأحداث.

حيث أنه في ربيع 206ق.م أي: بعد معركة إيليا جرت أول مقابلة سرية بين مسينيسا وبين مساعد أسكيبو ويدعى يونيوس سيلنوس Juniussilanus إلا أن الأمير النوميدي كان يريد التفاوض مع أسكيبو نفسه والذي كان في شمال نهر الإيبر.[43]

ولم يتردد هذا الأخير بالقيام بسفر طويل؛ ليتمكن من ملاقاته في قادس[*] حيث عَّبر الأمير النوميدي عن شكره وامتنانه لاسكيبو الذي أطلق سراح ابن أخيه ماسيڤا. ومما لاشك فيه أن مهارة أسكيبو السياسة كان يقابلها تقديرات مسينيسا السياسية والذي أعلن لهم أنه بمجرد عبورهم إلى أفريقيا فما عليهم إلا الاعتماد عليه فرحب أسكيبو بهذا العرض الذي أسعده كثيرًا، والذي سوف يكون بمثابة جسر يمكنهم من النزول بسلام في أراضي إفريقيا[44]، وفي المقابل يتعهد الرومان على مساعدة حليفهم على استعادة مملكة والده من مغتصبيها وحلفائهم، والجدير بالذكر أن هذا التحالف قد تم بسرعة فائقة أي: في نفس السنة التي جرت فيها تلك الأحداث بنوميديا 206 ق.م وفي هذا إشارة واضحة إلى سرعة الدبلوماسية الرومانية، بالإضافة إلى سرعة التحرك واستغلال الظروف المناسبة، وتم تتويج هذا التحرك بتحالف تضمن خطة للعمل العسكري المشترك بين الرومان والأمير مسينيسا على أرض أفريقيا عامة، والتخوم القرطاجية خاصة، وتم الاتفاق على إنزال الجيوش الرومانية في شواطئ نوميديا الشرقية، حيث يكون مسينيسا في الانتظار بعد أن يمهد للحملة الرومانية في المنطقة سياسيًّا وعسكريًّا، وبذلك ينطلق النشاط العسكري الروماني النوميدي ضد القرطاجيين وحليفهم سيفاقس.[45]

وفي خريف 206ق.م غادر كل من أسكيبو ومسينيسا إسبانيا فَتَوَجَّه الأول إلى روما للحصول على منصب القنصلية للعام الثاني.(46)

وأما الآخر فأراد أن يرجع إلى وطنه؛ ليضع حدًّا لهؤلاء الذي اغتصبوا عرشه بالإضافة للعمل من أجل إنجاح التحالف المشترك بينه وبين الرومان وكان يتحتم عليه في طريق عودته لوطنه المرور بأراضي سيفاقس بعد اجتيازه لمضيق أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) فالتجأ إلى باغا Vaga ملك الموريين والذي أعطاه حرسًا تمكن بهم بلوغ حدود مملكته مرورًا بمملكة سيفاقس، وكان قبل ذلك قد أعطى العلم لأصدقائه وأصدقاء أبيه فوجد منهم حوالي 500 نوميدي في انتظاره في مكان وصوله، وفي خطوة جريئة قام بمهاجمة غريمه لكومازيس.(47)

والذي كان في طريقه لزيارة سيفاقس، والذي كان على ما يحتمل في سرتا فقتل من قتل واستسلم الباقون إلا أن لكومازيس استطاع أن ينجو مع معظم حرسه ووصل إلى سيفاقس.(48)

وما أن شاع خبر وصول مسينيسا وقيامه بهذا العمل الجريء حتى توارد عليه الكثير من كل مكان من جنود جايا القدماء يعرضون خدماتهم عليه مستحثينه على إرجاع مملكة أبيه غير أن مازيتول جمع حوله جيشًا كبيرًا بلغ تعداده حسب المصادر حوالي 15 ألف فارس بالإضافة إلى الدعم الذي قدمه له الملك سيفاقس، إلا أن ذلك لم يحقق له النصر على مسينيسا ويرجع السبب في ذلك لشجاعة الرجال الذين كان يقودهم بالإضافة إلى ما اكتسبه من خبرة حربية في إسبانيا عندما كان يقاتل في صفوف الجيش القرطاجي.(49)

بعد أن رأى مسينيسا عجز ابن عمه ومازيتول عن الحرب، وجد أنه من الصواب مصالحتهم حتى لا تستعين بهما قرطاجة وسيفاقس فجمع بذلك شمل أسرته وأعرب عن دهائه وحكمته.(50)

إلا أن ما قام به مسينيسا كانت تقابله ردود فعل متباينة من قبل قرطاج وحليفها سيفاقس الذي لم يعر اهتمامًا كبيرًا لما جرى بين أمراء مملكة ماسيلي Massyli نوميديا الشرقية فقد بدأ عليه قبول الأمر الواقع.(51)

الأمر الذي لم يَرُق لقرطاجة حيث سارع صدر بعل لزيارة سيفاقس وعمل جاهدًا على تغيير رأيه موضحًا له حقيقة طموح وأطماع مسينيسا، والذي لن يكتفي بميراث أبيه وأجداده من قبل وأنه إن ترك سيصبح خطرًا يهدد قرطاجة وسيفاقس على حد سواء حيث سبق لصدر بعل - وهو في إسبانيا - من معرفة إمكانيات وقدرة

مسينيسا التي قل مثيلها على حسب وصفه؛ ولذلك كان لزامًا عليهما تنحيته قبل أن يستفحل أمره فاقتنع سيفاقس بأن القضاء على طموح مسينيسا أصبح أمرًا حتميًّا.[52]

وشرع سيفاقس بمهاجمة مسينيسا والذي انهزم شر هزيمة واستولى سيفاقس على كل البلاد الماسيلية (نوميديا الشرقية) وأما الأمير الشريد فقد لجأ إلى جبل بلوس Montbellus غير أن المؤرخين لم يتفقوا على ضبط دقيق لموقع ذلك الجبل ويبدو أنه يقع على مقربة من الأراضي القرطاجية وغير بعيد عن البحر، وما لبث مسينيسا في ذلك المكان حتى انطلق هو ورفاقه ينهالون على الأراضي القرطاجية القريبة نهبًا وتخريبًا مما كبَّد القرطاجيين خسائر فادحة.[53]

فأوعزت لحليفها وصهرها بالرد على تلك الاعتداءات والذي بدوره كَلَّف قائده بوكار Bucar للقضاء على مسينيسا، وبالفعل نجح بوكار في هزيمة جنود مسينيسا والذي نجا بعد أن أصيب بجراح بليغة مما جعل بوكار يعتقد أن الأمير الشريد قد قتل وانتشر ذلك الخبر في أرجاء كبيرة من نوميديا.[54]

وما أن التأمت جراحه حتى خرج من ملجئه وعاد إلى الكر والفر فاحتل المنطقة الواقعة بين هبون (عناية) وسيرتا، ثم بدأ بالزحف نحو الغرب[55]، فأثار ذلك غضب سيفاقس وقسم جيشه إلى فيلقين ترأس هو أحدهما وقلد ابنه "فارمينا" Vermina الفيلق الآخر، وتمت مهاجمة مسينيسا وجنوده من الأمام ومن الخلف الأمر الذي ترتب عليه فقدان مسينيسا كل ما يملك من جنود وفرَّ مع جماعة صغيرة إلى الأقاصي البعيدة، حيث خليج السرت بليبيا الحالية ومكث بها زمنًا يتحين الفرص منتظرًا وعود القائد الروماني.[56]

المبحث الثاني- الهجوم الكبير والمعاكس لاسكيبو على الشواطئ القرطاجية 204ق.م:

عاد أسكيبو إلى روما كما تمت الإشارة في نهاية سنة 206ق.م وجرى انتخابه قنصلاً وتولى مهامه يوم 15 من مارس من سنة 205ق.م، ولكنه وجد معارضة شديدة فيما يتعلق بسياسته الأفريقية[57]، لافتين انتباهه إلى المحاولات الفاشلة المتمثلة في محاولة أجيتوكليس ورغولوس غير أن الطبقات الشعبية كانت تساند أسكيبو في سياسته الأمر الذي جعله يحظى بولاية صقلية مع إمكانية الانطلاق إلى أفريقيا، ومكث أسكيبو بالجزيرة الإيطالية طيلة سنة 205ق.م منشغلاً في إعداد العدة للمجازفة الإفريقية.[58]

وبادر بإرسال صديقه ومساعده ليلوس على رأس أسطول حربي تكمن مهمته في نهب وتمشيط سواحل هيبون (عنابة) وتخريبها[59]، وحدث اللقاء بين مسينيسا والمساعد الروماني حيث أبدى له تَذمّره من تباطؤ أسكيبو في إرسال جيوشه إلى أفريقيا.[60]

ومن ثم بادروا إلى التنسيق والترتيب معًا واتخاذ التدابير اللازمة؛لنزول القائد الروماني أسكيبو على السواحل الأفريقية بنجاح وبأقل خسائر.[61]

وما أن انتقل الخبر إلى قرطاج حتى أَحْدَثَ فزعًا كبيرًا فيها، معتقدة أن أسكيبو قد هاجم التراب الأفريقي بجيشه فأعلن حالة التعبئة التامة، وحشد الجيوش ما استطاعت لذلك سبيلاً ولكن سرعان ما علم بأن ليلوس هو الذي يقود الأسطول وبصحبته قوات قليلة العدد، القصد منها العبث والنهب في البوادي، وأن معظم الجيوش لازالت في صقلية، الأمر الذي أراح قرطاج بشكل مؤقت.[62] حيث أنها لم تكن لتتوقع بأي حال من الأحوال أن تؤدي الجرأة والمغامرة بالرومان إلى نقل الحرب إلى أفريقيا في الوقت الذي لازال يرابط فيه القائد القرطاجي بجيشه في شبه جزيرة إيطاليا.[63]

والجدير بالملاحظة أن المؤرخ تيت ليف Teite liveius والمؤرخ أبيان Appien قد أشارا إلى أن مسينيسا بعد هزيمته أمام سيفاقس وابنه قد فرَّ إلى الأقاصي البعيدة، حيث خليج السرت بليبيا والتي مكث فيها زمنًا.[64]

وإذا سلمنا بهذا الافتراض فعلينا أن نسلم أيضًا أن المسافة بين خليج سرت وهيبون (عنابة) الذي نزل فيها ليلوس تربو عن 600 أو 700 كيلو متر، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف استطاع الملك المنفي أن يعلم بوصول ليلوس إلى هيبون؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى كيف تمكن من قطع هذه المسافة وخطر السقوط في أيدي القرطاجيين ويدي غريمه سيفاقس كان محدقًا به؟ بالإضافة إلى أن قطع تلك المسافة يتطلب زمنًا، وهنا يشير أصطيفان إكصيل إلى أن مسينيسا -على ما يبدو - لم يكن بليبيا كما نصت النصوص القديمة، وإنما كان متحصنًا بالجبال التي تشرف على مدينة هيبون، أي: أنه كان مستوليًا على جبل بلوس Bells المجاور لساحل هيبون، وبالتالي يسهل عليه معرفة وصول ليلوس والاتصال به.[65]

أقلق هذا الهجوم المفاجئ قرطاج فأنشأوا مراكز للمراقبة على جميع المرتفعات بالإضافة إلى سعيها الدؤوب بحث الأفراد الأفارقة على مساعدتها وخاصة الملك سيفاقس والذي لطالما أراد أسكيبو محالفته، إلا أنه في ربيع 204 ق.م كما تمت

الإشارة بعث مبعوثين إلى الأخير يعلمه بتحالفه مع قرطاج، وأنه سوف ينضم إليها إذا ما عبر الرومان البحر نحو إفريقيا.[66]

إلا أن القائد الروماني لم يُثْنِه مبعوثا سيفاقس ويبدو أنه رأى في مسينيسا ما يكفي لضمان النصر على قرطاجة فلم يرغب في التورط في محاولة التوفيق بين الملكين النوميديين اللذين لم تفلح الدبلوماسية القرطاجية في كسبهما معًا.[67]

وفي ربيع 204ق.م انطلق القائد الروماني أسكيبو بعد أن أنهى استعداداته لجميع جيوشه في ليليبيي Lilypee وجرى الإبحار أمام حشد كبير من الجماهير الذين قدموا من مختلف أنحاء صقلية لحضور هذا المشهد، وقد اختلفت المصادر التاريخية في ضبط عدد قواته بالتحديد، فبعضهم أشار إلى 35 ألف من المشاة والفرسان مجتمعين على متن 400 سفينة نقل[68]، وقد رافق أسكيبو أخوه لوكيوس Lucius ، ومريوس بوركيوس كاتو M. Porcius Cato والجدير بالذكر أن عملية العبور بالرغم ما تخللها مصاعب وصراع عنيف مع البحر، إلا أنه في نهاية المطاف نجح نجاحًا باهرًا، حيث أنه لم يفقد أية سفينة من سفنه[69]، حتى رسا أسكيبو في ربيع 204ق.م على كاب فارينا Cape Farina بالقرب من أوتيكا[70]، حيث استقر على مسافة 1500 مترا من أسوارها من جهة الجنوب الغربي، وبطبيعة الحال استطاع مسينيسا الالتحاق بحليفه ومعه 200 فارسا تقريبًا، ويلف الغموض كيفية حشد رفقائه الفرسان وكيفية الوصول إلى الرومان[71]، وأمام هذه الأحداث الجسام اتخذت قرطاجة فورًا تدابير الدفاع فقامت بتجنيد الجيوش وأخطرت على وجه السرعة سيفاقس والذي اتخذ سبيله للانضمام بجيشه إلى جيش صهره عزربعل جيسكون، وفي هذه الأثناء كان فصل الشتاء يقترب؛ ولذلك حاصر أسكيبو أوتيكا؛ ليقيم بها معسكره الشتوي، إلا أنه بعد 40 يومًا من حصار بري وبحري وبعد هجمات عديدة فشل فشلاً ذريعًا في اقتحامها، وشعر بأنه مهدد من جيوش أعدائه والتي بلغ مجموعها حوالي 93 ألفًا من الرجال، فاضطر إلى الانسحاب والتحصن في منطقة صخرية عرفت باسم كاستراكورنيليا، حيث توجد اليوم قرية تعرف باسم قلعة الأندلس على مسافة ثلاث كيلومترات من أوتيكا، في الوقت الذي أقامت فيه الجيوش البونية والنوميدية على بعد 12 كيلومتر من ذلك المكان.[72]

- محاولة سيفاقس إيقاف الحرب بين قرطاج وروما:

أدرك الملك النوميدي منذ الوهلة الأولى أن نشوب الحرب ستكون في شمال أفريقيا بمثابة كارثة ستضرب بمستقبلها بما في ذلك مملكته.[73]

وأن الممالك النوميدية والموريطانية لن تكون بمعزل بل إنها ستدفع ثمن الاصطدام العسكري بين قرطاجة وروما على أرض أفريقيا عاجلاً غير آجلاً.[74]

ومن هذا المنطلق وبالرغم من حسم موقفه اتجاه حليفه إلا أنه كان يأمل في إيقاف الحرب وتوقيع معاهدة سلام أهم بنودها الانسحاب الروماني من شمال أفريقيا يقابله انسحاب القرطاجيين من إيطاليا مع احتفاظ الطرفين بالأراضي التي يسيطران عليها حتى ذلك التاريخ.[75]

وفي حقيقة الأمر أن محاولة سيفاقس إيقاف الحرب بين الطرفين تعتبر حادثة مهمة ولها مغزاها، فعلى الرغم من أن التحالف والارتباط برابط النسب بين سيفاقس وقرطاج إلا أنه لم يجد بُدًّا في رعاية المفاوضات التي تهدف إلى إنهاء الحرب، وهذا الموقف يؤكد بما لا يدعُ مجالاً للشك بعدم تمسك القيادات المحلية قلبًا وقالبًا بتحالفهم مع القرطاجيين أو الرومان، بل كانوا يرغبون في التخلص منهما.[76]

وتبدو حنكة القائد الروماني جلية وذلك من خلال محاولته الاستفادة من هذه المفاوضات التي جرت برعاية سيفاقس وذلك للقيام بعمليات تجسس على معسكر أعدائه بالإضافة إلى محاولته إقناع سيفاقس للتحول إلى صفه.[77]

وعندما جمع من المعلومات ما يكفي للقيام بهجوم مباغت وفشل في إقناع سيفاقس، أرسل إليه مبعوثيه يخبرونه أن أسكيبو يريد السلام، إلا أن مجلسه على خلاف ذلك، وأرسل عناصره سنة 203ق.م ليضرموا النار في معسكر الجيش القرطاجي وحليفهم سيفاقس، واندلعت النار بسرعة كبيرة في الأكواخ المتزاحمة والمصنوعة من المواد القابلة للاشتعال فأهلكت حوالي أربعين ألف جندي وأسر خمسة آلاف آخرين، وتمكن عزر بعل وسيفاقس من الفرار مع بعض فرسانهم بصعوبة بالغة.[78]

ـ معركة السهول الكبرى:

لم تجد حكومة قرطاج أمام هذه الكارثة بُدًّا من تكليف القائد القرطاجي عزربعل بالمسارعة بتجهيز جيش آخر، وتم تجميع قوة من الفرسان الكلتين(*) قوامها أربعة آلاف فارسا، والتحق سيفاقس للمشاركة في هذه الحرب المرتقبة ضد الرومان.[79]

وعندما أنهت الجيوش القرطاجية النوميدية استعداداها لمواجهة أسكيبو الذي ترك أوتيكا محاصرة برًا وبحرًا، واصطحب معه جميع مشاته وفرقه من الفرسان الإيطاليين بالإضافة إلى فرسان مسينيسا، والذين سيكون لهم دور بارز وحاسم في

نهاية الحرب، وكان اللقاء بين الجيشين في منتصف أبريل سنة 203ق.م في وادي مجردة الأوسط حيث تمتد السهول العظمى وسرعان ما حاقت الهزيمة بالبونيين.[80]

وقد قسم الجيش الروماني بعد تحقيق النصر إلى قسمين: كتائب الفرسان الإيطاليين – النوميدين أسندت قيادتها إلى ليليوس ومسينيسا، ومهمتهما مطاردة الملك سيفاقس، أما كتائب المشاة الثقيلة فظلَّت تحت قيادة أسكيبو نفسه وقد عملت على الاستيلاء على المدن والقرى النوميدية الخاضعة لقرطاجة والواقعة بالقرب من السهول الكبرى.[81]

أما سيفاقس فقد فر إلى عاصمته سرتا محاولاً جمع جيش قوي لمواجهة ليليوس ومسينيسا، والحيلولة دون حصارهما لمدينته، إلا أنه وقع أسيرًا في يد خصمه وغريمه مسينيسا[82]، الذي استولى على عاصمته سيرتا أو بالأحرى استرجعها وسلم سيفاقس أسير حرب للقائد الروماني أسكيبو وبذلك فقدت قرطاج حليفًا قويًّا كانت بأَمَسِّ الحاجة إلى مجهوداته الحربية لمواجهة الرومان.[83]

المبحث الثالث- المفاوضات الرومانية القرطاجية وعودة حنبعل في خريف 203ق.م إلى قرطاج:

أصبح الانقسام والاختلاف داخل الأوساط القرطاجية سيد الموقف، وأصبحت الحاجة ملحة لإيقاف حرب بلغت مرحلة الخطورة، وبات العدو المرابط في تونس يهدد العاصمة القرطاجية بشكل مباشر؛ ولذلك كان لزامًا على الحكومة القرطاجية أن تسير وفق خطين متناقضين، الخط الأول: هو تعالي بعض الأصوات المعارضة والمطالبة ببدء المفاوضات المباشرة مع روما، بينما يتبنى الخط الآخر ضرورة استدعاء حنبعل وجيوشه؛ لإنقاذ الموقف في قرطاج ويبدو أن هذا التناقض عبارة عن خطة مدبرة بدقة استخدمت فيها الحكومة القرطاجية المكر البوني Farus Punice متظاهرة بالبدء في المفاوضات؛ لكسب الوقت بانتظار عودة حنبعل وماجون من إيطاليا[84]، وإنْ اختلف المؤرخون بشأن هذا الموضوع إلا أن قرطاج قد استفادت من فترة المفاوضات سواء أكان ذلك بتخطيط منها أم كان محض الصدفة، على هذا الأساس قرر القرطاجيون أن يطلبوا الصلح بعد هزيمتهم النكراء وأسر حليفهم، فأرسلت حكومة قرطاج وفدًا يضم ثلاثين عضوًا من مجلس الشيوخ القرطاجي إلى معسكر أسكيبو لمعرفة شروط الصلح.[85]

وأمام هذه المعطيات أدرك أسكيبو جيدًا أن استمراره في محاصرة قرطاج قد يؤدي إلى نتائج سلبية على الجيش الروماني الذي يتوقع الهجوم عليه في أية لحظة من

قبل الجيش القرطاجي ولهذا بادر بفرض جملة من الشروط تسهم لحد كبير في إضعاف قرطاج[86]، وتتلخص هذه الشروط في الآتي:

- إطلاق سراح الأسرى وإعادة اللاجئين والعبيد الرومان الفارين إليها.
- تسليم جميع السفن الحربية ما عدا عشرين سفينة بالإضافة إلى تسليم جميع أفيالهم، ولا يسمح لهم باقتناء هذه الحيوانات فيما بعد.
- الانسحاب الفوري والمشروط من بلاد إيطاليا، وبلاد الغال وأسبانيا، وجميع الجزر الموجودة بين إيطاليا وشمال أفريقيا.
- إعادة جميع الأراضي التي كانت في حوزة مسينيسا أو أسلافه، بالإضافة إلى التزام قرطاجة بعدم القيام بأي عمل حربي إلا بعد الاستئذان من روما.
- عليهم أن يدفعوا غرامة قدرها خمسة آلاف تالنت، وأن ويزودوا الجيش الروماني بحاجته من القمح والشعير حتى نهاية المعاهدة.[87]

ما أن قبلت قرطاجة بهذه الشروط حتى توجهت سفارة إلى روما؛ لتوقيع المعاهدة الحاسمة إلا أن الجمعية الشعبية الرومانية أخذت وقتًا طويلاً في التشاور مع أسكيبو في موضوع شروط الصلح، ولم يتم التوقيع على المعاهدة إلا في ربيع 202 ق.م، في حين بدأت المفاوضات منذ خريف 203ق.م.[88]

في حين استفادت قرطاجة من كل ذلك التأخير بعودة حنبعل في بداية خريف عام 203ق.م إلى الشمال الإفريقي بعد غياب دام خمسة وثلاثون عامًا تقريبًا، وكان بداية نزوله للبر في لبدة الصغرى Leptis لمطة[89]، ومنها اتجه نحو مدينة حضرموت (هدروميت - سوسة) والتي كانت على مسافة قريبة من لبدة الصغرى.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا لم ينزل حنبعل بجيوشه بمدينة قرطاج المحمية بأسوارها العظيمة واختار المواقع سالفة الذكر لنزول جيوشه؟

في حقيقة الأمر أدرك حنبعل جيدًا أن قرطاج بالفعل تحميها أسوار عظيمة إلا أنه تنقصها المؤن ولهذا الأمر مساوئ أكثر مما له منافع فلن تستطيع هذه الجيوش الخروج منها؛ لأنه وبكل بساطة سيقطع أسكيبو جميع السبل المؤدية لداخل البلاد، كما أنه أراد أن يكون بعيدًا عن الحكومة القرطاجية والتي لم يكن مُستعدًّا لقبول أوامرها ولا حتى رقابتها.[90]

أما في حضرموت فإن الموضوع يختلف تمامًا حيث يتسنى له تلقي النجدات والمؤن، والقيام باستعداداته بعيدًا عن مراقبة العدو.[91]

وبالإضـــافة إلى أن حضـــور الأبارقة في تلك المناطق التي عســـكر فيها كان كبيرًا، وأخيرًا فإن موقع حضـــرموت الذي يبعد حوالي مائة وخمســـين كيلومترا عن تمركز أسكيبو وقواته جعله في مأمن وترك له حرية التحرك والتصـرف[92]، وحسـب ما أورده المؤرخ إبيانوس فإن نزول حنبعل بحضـرموت عُدَّ تصـرفًا عدائيًّا موجه ضد الرومان.[93]

- معركة زاما:

حنبعل وأسكيبو وجهًا لوجه في زاما:

لم يَكَدْ حنبعل ينهي تدابيره وتدريباته المحكمة حتى تلاحقت الأحداث الخطيرة، وأصـبحت المعركة الفاصـلة قاب قوسـين أو أدنى، وبعد أن أبرمت المعاهدة في روما وقبل عودة الفريق القرطاجي المفاوض، جرت بقرطاجة أحداث أشـــعلت نار الحرب، وذلك عندما تعرض موكب من الســـفن التي تحمل المؤن إلى جيش أســـكيبو لعاصـــفة هوجاء في عرض السواحل الأفريقية، مما اضطر بعض السفن إلى الرسو على جزيرة ايجيمور Aegimure (زميرة) Zambra الواقعـة في مـدخـل خليج قرطـاجـة على الشـــاطئ الغربي للرأس الطيب، وأمام الضـــغط الشـــعبي والذين كانوا يعانون من قلة المؤن أمرت حكومة قرطاج بالاستيلاء على حمولة هذه السفن.[94]

أرســل أســكيبو مبعوثين للاعتراض على انتهاك القافلة وطلب التعويضــات؛ وليخبرهم بـالتوقيع على المعـاهدة في رومـا والتي طـال أمـد توقيعهـا إلا أن خطـابـات مبعوثيـه لم تلق آذانًـا صـــاغيـة وأمـام التعنـت القرطـاجي رجع المبعوثون دون أدنى فائدة.[95]

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد تم اعتراض الســـفينة الخماســـية التي تحمل المبعوثين الرومان في طريق عودتهم حيث اعترضـــتها ثلاث ســـفن بونية، وحاولت إغراقها إلا أنها أفلتت بعد أن أصـــيبت بخســـائر فادحة في جنودها البحريين.[96] وكان ذلك بمثابة إعلان استئناف العمليات العسكرية بين الجانبين.[97]

ولم يلبث أسـكيبو حتى باشـر في نهب وتخريب القرى والأرياف وأسـر عدد كبير من الأهالي، وتوافدت رسله إلى مسينيسا لحثه على الانضمام إليه.[98]

وفي المقـابـل وجَّهـت حكومـة قرطـاج النـداءات إلى حنبعـل لمواجهـة خطر الرومـان، وبـالرغم من عدم امتلاكه الوقت الكافي لتنظيم اســـتعداداته النهائية، إلا أنه بادر بترك حضـرموت ليعسكر بالقرب من زاما والتي تقع على مسيرة خمسة أيام أي: حوالي مائة كيلومتر من قرطاجة باتجاه الغرب منها تقريبًا.[99]

ويتلخص برنامج حنبعل الحربي في هذه المعركة في السير لقتال مسينيسا القاطن في مدينة سرتا والقضاء عليه قبل التحاقه بحلفائه الرومان[100]، وذلك لمعرفة حنبعل قوة الحليف الروماني ودوره الكبير في ترجيح كفة الرومان، وبعد القضاء عليه يتسنى له الإيقاع باسكيبو ورجاله بعد عزلهم عن حليفهم، إلا أن الأخير الذي تتلمذ في مدرسة حنبعل أدرك جيدًا المخطط العسكري للأخير ولذلك تحرك من معسكره في نفس الوقت الذي خرج فيه حنبعل من حضرموت.[101]

وأرسل إلى مسينيسا يحثّه على الإسراع للالتحاق به واتجه إلى الجهة الجنوبية الغربية مدركًا أن خصمه سوف يتجه نحو الشمال الغربي لاجتياز سلسلة الجبال الكبرى[102]، والتي تفصل بين الساحل وأفريقيا، ومن ثم الدخول في مسلك من مسالكها المعروفة، ولذلك قرر أسكيبو بعد وصول حليفه انتظار حنبعل في ذلك المكان، وكان حسابه دقيقًا[103]، فعندما خرج الأخير في الفج الذي سلكه تفاجأ بما لم يكن في الحسبان فالمفاجأة الأولى وجود أسكيبو في انتظاره أما الأخرى فهي انضمام مسينيسا إليه وكان يظنه مازال بعيدًا.[104]

وقد قاد الملك النوميدي عشرة آلاف من الرجال منهم أربعة آلاف من الفرسان، وأمام هذا الحشد المتناسق والمتناغم حاول حنبعل الدخول في مفاوضات مباشرة مع أسكيبو والذي وافق بدوره على بدء المفاوضات، والتي اشترط فيها حنبعل توقيع اتفاق يحفظ لقرطاج أسطولها الحربي؛ لتبقى مكانتها قوية بين القوى في غربي المتوسط، إلا أن المفاوضات لم تسفر عن تحقيق هذه المطالب.[105]

ومن هنا أصبحت إمكانية عقد اتفاقية سلام بين الطرفين قد أصبحت في نطاق الاستحالة، وعلى هذا الأساس دارت المواجهة في بداية خريف 202ق.م في معركة حاسمة هي معركة زاما وتمكن الرومان من تحقيق الانتصار على القرطاجيين بالرغم من استخدامهم كافة طاقتهم الحربية، وكان لمسينيسا دور كبير وبارز في هذا النصر.

وتراجع حنبعل وبعض فرسانه إلى حضرموت ومنها إلى قرطاج[106]، وأمام هذه المعطيات لم يكن أمام حكومة قرطاج إلا الدخول في مفاوضات مباشرة مع أسكيبو الذي أبقى بدوره على نفس شروط المعاهدة السابقة مع إضافة شروط جديدة وخطيرة كانت كفيلة بوضع الدولة القرطاجية عمليًّا تحت رحمة جارتها المملكة النوميدية القوية بمسينيسا وذلك عندما وضعت شروطًا غامضة كانت بمثابة بذرة النزاع الذي سيدمر قرطاجة والتي نصت على إعادة جميع الأراضي التي كانت بحوزة مسينيسا وأسلافه بالإضافة إلى التزام قرطاجة بعدم القيام بأية حرب إلا بعد الاستئذان من روما.[107]

والملاحظ في هذه الشروط القاسية التي فرضتها روما على قرطاجة تصميم واضح على منع صحوة قرطاجة، بالإضافة إلى وضع مخطط للحدِّ من قوتها في أفريقيا، معتمدين على ذلك في تشجيع مسينيسا بالتوسع على حساب أراضيها.[108]

ويتضح من خلال الشرط القاضي بتسليم قرطاجة كل المدن والمناطق التي سبق أن استولى عليها مسينيسا وآباؤه من قبله أن هذه العبارة قد كانت سببًا مباشرًا لقيام الحرب البونية الثالثة؛ وذلك نتيجة لغموض هذه العبارة، وربما تركت العبارة الغامضة لتوريط قرطاجة ومسينيسا في حرب تتخذ منها روما ذريعة للقضاء عليها.[109]

ومن خلال الطرح السابق يبدو جليًّا أن روما عقدت العزم على تحديد قطاع قرطاجة بمساحة ترجع بها إلى بداية مرحلة استقرار الفينيقيين شمال أفريقيا، وأصبح من الطبيعي تغيير ميزان القوى في حوض البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي فرض على قرطاج أن تبقى دولة محددة الكيان السياسي والحربي مما أتاح لروما أن تصبح القوة الأولى في المنطقة بأسرها.[110]

الخاتمة:

وفي نهاية هذا الجهد المتواضع، خلص البحث إلى الآتي:

1. ساعد اهتمام قرطاجة المتزايد بالنشاط الاقتصادي على إقامة علاقات اقتصادية وسياسية وعسكرية مع بلدان البحر الأبيض المتوسط مما مَكَّنها من السيطرة على صقلية بالإضافة إلى مدن وموانئ الشمال الإفريقي.
2. أن ما يتم عرضه من ملابسات تاريخية كأسباب مباشرة لنشوب الحرب بين القرطاجيين والرومان في صقلية لأول مرة يمكن اعتباره نتيجة لتطبيق فكرة التدرج في التوسع الروماني من أجل استكمال السيطرة على جنوب إيطاليا وملحقاته فقضية المارتين والكامبانين وتقلبات السيراكوزيين ما هي - في الواقع - إلا مظهر من مظاهر الجو المتوتر الذي شحنته المصالح المتضاربة لكل من القرطاجيين والرومان في صقلية، إلا أن المؤرخين عدوا تلك القضايا أسبابًا رئيسة ومباشرة لإشعال الحرب بين أكبر دولتين في صقلية في ذلك الوقت.
3. من النتائج المهمة كذلك هو التغيير الكبير والملحوظ في العلاقات القرطاجية الإفريقية، وحدث ذلك نتيجة؛ لتضارب المصالح بينهما لاسيما مع نهاية الحرب البونية الأولى، حيث أصبحت قرطاجة تحافظ بالدرجة الأولى على

مصـــالحها الأرســـتقراطية، الأمر الذي دفع الســـكان المحليين في العصـــر القرطاجي نحو الثورات المتعاقبة، بل في أحيان كثيرة للتحالف مع الرومان ضـد القرطاجيين وهذا مؤشـر خطير في سـياسـة قرطاج الداخلية مع القاعدة العامة والتي سوف يكون لها انعكاسات كبيرة على المنطقة بشكل عام.

4. كان أسـكيبو على درجة عالية من الحنكة والذكاء واسـتفاد من تجربة حنبعل نفسه حيث أدرك تمامًا أهمية القوة المحلية المتمثلة في الملوك النوميدين والتي وصلت إلى درجة مهمة في إقرار الأوضـاع السياسية والاقتصادية في تاريخ الشـمال الأفريقي في تلك الفترة، وذلك من خلال محاولتها في تكوين ممالك مسـتقلة لحد كبير يكون لها دور في معترك النزاع السـياســي والخروج منه محرزة استقلالها الكامل، ولو كان ذلك على حساب أحد الطرفين الروماني أو القرطـاجي، والـذين عملوا جـاهدين على إقـامـة علاقـات طيبـة مع الممـالك النوميدية؛ وذلك كســـبًا لتأييدهم المادي والمعنوي من ناحية، وإبعادهم عن مقاومتهم من ناحية أخرى. وبذلك وجد أسكيبو في شخصية مسينيسا وطموحه في القضـــاء على الدولة القرطاجية خير حليف في الوقت نفســـه أراد الملك النوميدي أن يقوي مكانته كملك نوميدي يطمح في حكم بلاد الشـمال الإفريقي معتمدًا على علاقته بالرومان وتحالفه معهم، والذين أحسـنوا اسـتخدامه، فكان لهم خير عون، في انتصـارهم على القرطاجيين في الحرب البونية الثانية في أكتوبر 202ق.م.

5. يبدو جليًا أن الدبلوماسية الرومانية عرفت كيف تستفيد من مناهضـة مسينيسا للقرطـاجيين وحقده عليهم، حيث غض الطرف عن نشـــاطه التوســـعي على حســـاب الأعداء القرطاجيين، حيث عمل على إضـــعافهم وجرهم إلى نقض معاهدة 201 ق.م.

الهوامش:

(1) محمد بشير الشنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146ق.م- 40م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص19-20.

(2) اصطيفان اكصيل: تاريخ شمال أفريقيا القديم، ج3، التاريخ العسكري لقرطاجة، ترجمة: محمد التازي سعود، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة تاريخ المغرب، الرباط، 2007، ص162.

(3) محمد بشير الشنيتي: مرجع سابق، ص22.

(4) شامية شارن: أوضاع النوميديين في ظل الحكم الروماني وموقفهم منه، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، القاهرة، 1983، ص7-8.

(5) محمد بشير الشنيتي: مرجع سابق، ص22.

(6) Lacroix. L, Numidie et Mauritanine; in Afrigue Aneinne, Diot Freres, Paris, 1981 Tome2. P.1-5.

(7) Livius, Roman History., L.C.L, eng. Trans by: London, 1925.

(8) محمد بشير الشنيتي: مرجع سابق، ص22-23.

(9) حارش محمد الهادي: التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء مسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول (203ق.م – 46ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، (جوان 1982)، ص17؛ رشيد الناضوري: المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص269.

(10) محمد فنطر: يوغرطة من ملوك شمال أفريقيا وأبطالها، الدار التونسية للنشر، 1970، ص68.

(11) Berthier. La Numidie Rome et Maghreb, ed Picard, 1981, p34.

(12) Gsell.S Histories Ancienne de la, Afrnuedu Nord, press, Tome, I,II,III,V p34.

(13) Polybius, The History, LCL, eng Trans by: Paton W.P, 1927, No23, p6.

(14) محمد الصغير غانم: "علاقة نوميديا بالرومان"، مجلة التراث، العدد الثاني، مطبعة الشهاب، 1987، ص18-35.

(15) شوقي خير الله: قرطاجة العروبة الأولى في المغرب، مركز الدراسات العلمية، سوريا، 1992، ص218.

(16) Plinius, Natural History Y, LCL, eng Trans by: Rack. H.A.M, London, 1927.

(17) فرنسوا ديكريه: قرطاجة الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1994، ص175-176.

(18) Poly, XI, 24.

(19) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص168.

(20) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص176.

(21) Liv. Xxvlll, 18,12.

(22) محمد بشير الشنيتي: مرجع سابق، ص28.

(23) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص176.

(24) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص177.

(25) محمد بشير الشنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146ق.م- 40ق.م)، مرجع سابق، ص24.
(26) محمد الصـــغير غانم: المملكة النوميدية والحضـــارة البونية، دار المهدي، الجزائر، 2006، ص44.
(27) J.P. Brisson, carthage ou Romeed. Fayard, Paris, 1973, p.277.
(28) Liv, xxxix. 23. 10.
(29) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص176.
(30) Poly. xv. 13.
(31) اصطفيان اكصيل: مرجع سابق، ص167.
(32) سـعدية سـرقين: أهمية نوميديا الاقتصـادية بالنسـبة لروما من سـنة 46 ق.م إلى نهاية القرن الثاني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، 1983، ص18-19.
(33) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص174.
(34) Liv. Xxix 6-13.
(35) محمد بشير الشنيتي: مرجع سابق، ص25.
(36) Gsell.S H.A.A.N.T. op. cit. 3p 182.188.
(37) Liv. Xx.ix.29-12.
(38) محمد فنطر: يوغرطة من ملوك شمال أفريقيا وأبطالها، مرجع سابق، ص48.
(39) عثمان الكعك: موجز التاريخ العام للجزائر، دار المغرب الإسلامي، تونس، 2003، ص49.
(40) Warmington. B.H., Carthage Pelican Book, England, 1964, pp124-137;
– فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص174.
(41) محمد بشير الشنيتي: مرجع سابق، ص26.
(42) مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ط1، الشـــركة الوطنية للنشـــر والتوزيع، الجزائر، ص51.
(43) اصطفيان اكصيل: مرجع سابق، ص170-171.
(*) قادس مدينة فنيقية أسسها الفينيقيون في الألف الثانية ق.م على سواحل إسبانيا، حيث كانوا يأتون إلى شـبه الجزيرة الإيبرية سـعيًا وراء اقتناء المعادن من فضـة ونحاس، وقصـدير، محمد فنطر: يوغرطة من ملوك شمال أفريقيا، أبطالها، مرجع سابق، ص45.
(44) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص174-175.
(45) محمد بشير الشينتي: مرجع سابق، ص26-27.
(46) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص177.
(47) Soumdghe.ch La Numidie et Rome, P.V.F. Paris, 1966. Pp.71, 80, Livius xxi.x;
– اصطفيان اكصيل: مرجع سابق، ص172؛ شامية شارن: مرجع سابق، ص10.
(48) اصطفيان اكصيل: مرجع سابق، ص172.
(49) Camps, G., Massinissa, ou Les de buts de histoire Libyca, 1961, P.177.
(50) مبارك محمد الميلي: مرجع سابق، ص179.
(51) محمد فنطر: يوغرطة من ملوك شمال أفريقيا وأبطالها، مرجع سابق، ص53.
(52) محمد الصـــغير غانم: "علاقة نوميديا بالرومان" مجلة التراث، العدد الثاني، مرجع ســـابق، ص17.

(53) اصطفيان اكصيل: مرجع سابق، ص173-174.
(54) Camps, Massinissa, op, cit, P.168.
(55) App., II 12.13, Liv. xxix,xxxii 3-14.
(56) App,. B; Poly. 6-12; Liv- xxixxxiii.
- محمد فنطر: بوغرطة من ملوك شمال أفريقيا وأبطالها، مرجع سابق، ص ص 55-56.
(57) Poly, xv, 15-16.
- اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص182.
(58) محمد فنطر: يوغرطة من ملوك شمال أفريقيا وأبطالها، مرجع سابق، ص57؛ شارل أندريه جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمد مزالي، بشير أبو سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص104.
(59) Liv.xxix, iv, 1-7.
(60) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص178.
(61) هارولد لام: هانيبال، ترجمة: شدى السيسي، دار الفكر العربي، بيروت، 1962، ص235.
(62) Liv. Xxix, iv, 8-9.
– اصطفيان اكصيل: مرجع سابق، ص183-184.
(63) محمد الصغير غانم: "علاقة نوميديا بالرومان"، مرجع سابق، ص18.
(64) App. 13; Liv, xxxiii.
(65) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص184-185؛ محمد فنطر: بوغرطة من ملوك شمال أفريقيا، مرجع سابق، ص59.
(66) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص185.
(67) محمد بشير الشينتي: مرجع سابق، ص29.
(68) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص128.
(69) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص187.
(70) Liv, xxix, xxvii,12-14; Poly, iii, xxii, 5; Warmington. B.H., Op. cit. p229.
(71) اصطفيان اكصيل: مرجع سابق، ص190.
(72)Poly, xxxlii.
(73) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص179.
(74) f. Dectet.M.H. Fantar, op. cit. Decret. F. Funtar, M.H.L.Dans Z, A ntiguite, Paris 1981, p98.
(75) هارت، ج. ل ليدل: الاستراتيجية وتاريخها في العالم، ترجمة: الهيثم الأيوبي، ط3، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص54.
(76) رشيد الناضوري: مرجع سابق، ص271-272.
(77) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص181-182.
(78) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص196-198؛ شارل أندريه جوليان: مرجع سابق، ص104-105.
(*) اسم الكلتين يطلق على فريق من سكان بلاد الغال يدعون كلتين بلغتهم أما الرومان فقد عرفوهم باسم الغاليين. انظر: عبد الله حسن المسلمي: الحضارة الرومانية، ط1، بنغازي، 1998، ص84.
(79) Warming ton. B.H. op. cit. 229-230.
(80) Lancl, S., Hannibal, Ceres Editions, Tunisie, 1999, p.298- 301.

(81) Liv, xxx.12.
(82) Poly, xiv. 1.5. Hallward. B.L"Scipio and Victory", C.A.H.L thedt, Cambridge university press, London, 1932. p.102.
(83) Lancel. S. Hannibal. Op. cit, p298-302.
(84) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص182-183.
(85) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص207.
(86) جورج مصروعة: هنبعل، مطابع سمينا، بيروت، 1960، ص210.
(87) نجيب إبراهيم طراد: تاريخ الرومان، تقديم محمد زينهم عزب، مكتبة ومطبعة الغد، الجيزة، 1997، ص151-152؛ اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص207-208؛ شارل أندرية جوليان: مرجع سابق، ص63؛ فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص183.
- B.H. Warmington. Op. cit, pp,286-287.
(88) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص183.
(89) Poly. X.v.5. Hallward. B.L. C.A.H. op. cit, P.105.
(90) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص209.
- Foucher. L., Hadrumetum, Tunis, 1964. P73.
(91) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص209-210.
(92) محمد فنطر: حنبعل 264-183ق.م، ذاكرة المعارف التونسية، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، العدد2، 1991، ص29-30.
(93) App, VIII.
(94) Warmington. B.H., op. cit, p232.
(95) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص134-185؛ شارل أندرية جوليان: مرجع سابق، ص105.
(96) اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص213.
(97) Warmington. B.H., op. cit, p232.
(98) ليدل، هارت، ب.هـ: "هانيبال أعظم الفاشلين في التاريخ"، في تاريخ العالم، ترجمة وزارة العمومية، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص300.
(99) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص185.
(100) Hallward. B.L"Scipio and Victory", C.A.H.L thedt, Cambridge university press, London, 1932, p102.
(101) محمد بوذينة: تونسيون في تاريخ الحضارات، منشورات محمد أبوذينة، تونس، 1998، ص128.
(102) Liv, xxx, App, VIII.
(103) أحمد صفر: مدينة المغرب في التاريخ، ج1، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959، ص231.
(104) Poly, XV,V,12.
(105) فرنسوا ديكريه: مرجع سابق، ص ص 158-159؛ اصطيفان اكصيل: مرجع سابق، ص ص 220-221.
(106) Poly, XV. 14, App, VIII, VII. 44.47; Osprey publishtng, London, 1985, p4.
(107) Poly, XV, 18. Gsell. S., H.A.A.N; op, cit, p286-287; Elmayer. A.F., Tripolitania and the Roman Empire B.C. 47. A. 235, M.J. S.C, 1997., p.13.

(108) د. ي هاينز: دليل تاريخ وآثار منطقة طرابلس، ط3، دار الفرجاني، طرابلس، 1965.

- Elmayer. A.F., Tripolitania and the Roman Empire B.C. 47. A. 235, M.J. S.C, 1997, P14.

(109) شارل أندريه جوليان: مرجع سابق، ص37؛ د. ي هاينز: مرجع سابق، ص ص 132-133؛ عبد الحفيظ فضيل الميار: الحضارة الفينيقية، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، 2001، ص310.

(110) رشيد الناضوري: مرجع سابق، ص274.